آثار العرب الخالدة في اوربا

(تابع ما قبلهُ)

كيف وصل المسلمون الى اوربة ؟

بقطع البحر الفاصل بيننا وبينها

هذا البحر الذي نسميهِ الآن بالبحر الابيض المتوسط والمعروف عند الاتراك ببحر سفيد من كلة فارسية معناها الابيض . ولقد كان يسمَّى بالبحر المتوسط لتوسطهِ بين اراضي افريقية وآسيا واوربة (Méditerranée) واسمهُ المشهور عند اسلافنا ايضاً بحر الروم وبحر الشام . ولو انهم سموهُ بالبحيرة الاسلامية لكانوا قالوا حقاً واثبتوا صدقاً . وقد امتلكهُ المسلمون وامتلكوا ما فيهِ من الجزائر مثل : مَيُورقة ومنُورقة (وهي المعروفة الآن بجزائر الباليار (les Baléares) وكان الاندلسيون يسمونها بهذين الاسمين وباسم الجزائر الشرقية او الجزائر فقط . واما القطر الجزائري المشهور Algérie فاسمهُ عندهم مأخوذ من اسم عاصمتهِ Alger (جزائر بن مزغنه او بني مزغونة) ثم صقلية وقورسقة واقريطش (المعروفة الآن بلغم كريد) . وكل هذه الجزائر كانت الحضارة الاسلامية فيها باهية باهرة زاهية زاهرة

اما الجزائر الصغرى فكان شأنها كذلك مثل قبرس ورودس ومالطة . وآثار الاسلام في هذه ايضاً باقية للان

ولعلكم ترتاحون الى العلم بان مالطة كانت سوق الادب العربي فيها رائجة . كان صاحبها اسمهُ القائد يحيى صنع لهُ احد المهندسين صورة تعرف بها اوقات النهار بالصنج فقال ابو القاسم بن رمضان المالطي لعبد الله بن السمط المالطي اجز هذا المصراع فقال

جارية ترمي الصنج بها النفوس تبتهج
كأنَّ من احكامها الى السماء قد عرج
فطالع الافلاك عن سرّ البروج والدرج

اما بحر الارخبيل وجزائرهُ فلم يدخلا في حكم العرب بصفة أكيدة حقيقية انما كانوا يغيرون فيهِ عليها من حين الى حين تبعاً لعلاقاتهم مع الروم صلحاً وهدنة وحرباً . هذا البحر هو بحر الارخبيل او بحر هيجاي Egée فانتم ترون انهُ شيءٌ وبحر سفيد شيءٌ . ولا عبرة بما يرد في هذه الايام في كثير من الجرائد اليومية العربية بمناسبة الحرب الحاضرة والكلام

على الارخبيل وجزائر العثمانية . فان الذين وقفوا انفسهم على الترجمة فيها قد وقفوا عند ما رأوا بحر Egée فاغتروا وغرروا بالقارئين اذ قالوا : بحر سفيد . اطلقوا على هذا البحر اسم « سفيد » لان اللفظ اصبح غير متعارف في مصر وظنوا انهم افادوا وأدوا الامانة حقها . فكانوا مصداقاً جديداً للمثل السائر عند الطليان وهو « Traduttore Traditore » ويصح لنا ان نترجم ذلك مع التساهل ومراعاة ملكة اللسان المصري بقولنا « المترجم مبرجم » والبرجمة غلط الكلام

فاملي ان تصل كلمتي هذه الى ارباب الاقلام فلا يعودون الى مثل هذا التخليط

***

قلت لكم يا سادتي ان المسلمين عبروا البحر فامتلكوا جزائره وجعلوها قواعد لارتكاز اعمالهم في الفتوح كما هو شأن سائر الجزائر اليوم مع الدول العظمى . ومنها ذهب المسلمون الى اوربا فامتلكوا ما قدروا عليه واحتلوا ما تيسر لهم واغاروا على ما ارادوا

ذهبوا بأساطيل مؤلفة من « الجواري المنشآت في البحر كالاعلام » . تلك الاساطيل التي تغنّى بها شعراؤهم بما لا حاجة للاشارة اليه الآن لئلاّ يتشعب معنا الكلام فيخرج عما يقتضيه المقام . واني ازدت لفت الانظار الى ان الدول التي تريد اعلاء كلمتها وحفظ بيضتها لا بد لها من امتلاك ناصية البحار وذلك لا يكون الاّ بتلك الحصون الشامخات الملغرات المتخمرات . فان البحر لهُ الشأن الاكبر في رفع شأن الدول وسلاطة بعضها على بعض بحق وبغير حق . وحسبكم ما هو حاصل الآن بين حكمكم وبصركم في البحر الابيض المتوسط وفي بحر الارخبيل بل وفي البحر الاحمر المعروف في كتب الجغرافيا العربية ببحر القلزم نسبة الى مدينة القلزم (Clizma) التي قامت مقامها وعلى القرب منها مدينة السويس

اخذ العرب عن اليونان اسم الاسطول للدلالة على مجموع السفن التي تباشر الحرب في البحر كما اخذنا نحن الآن عن الافرنج كثيراً من اصطلاحاتهم البحرية . ومن ذا الذي ركب منكم البحر ولم يحتجز قمرة في الباخرة ؟ هذه القمرة هي طليانية المنبت والمحتد Camera ومعناها الغرفة والحجرة . فان هي الا معاوضة ومقايضة كما ان البحر اذا انحسر عن البر من هنا طغى على الشط المقابل لهُ في ناحية اخرى . ناموس عامٌّ تتجلى ظواهرهُ في كل اعمال الانسان وفي سائر احوال العمران . كذلك كان شأن الافرنج منذ قرون . ولقد بقيت الاسماء العربية متعارفة عندهم وفي كل لغاتهم . وليس لهم سبيل الى تبديلها بغيرها . اذكر من ذلك مثالاً واحداً لانهُ الاس وبداية الرأس

فلفظة اميرال عربية الاصل وهو عندنا امير الماء كما تراهُ في موسوعات النويري بقر القوم النصف الاخير من باب التلطيف والتخفيف كما هو شأننا ايضاً في تعريب الكلمات الاعجمية . وقد جئنا الآن نجار بناهم على التعبير بهذا الحرف وبما تركب منهُ فنحن نقول : اميرال كبتر اميرال فيس اميرال

من هو اول اميرال مسلم ؟

هو العلاء بن الحضرمي الصحابي الجليل عليهِ رحمة الله . فهو اول مسلم ركب البحر للغزو وكان ذلك من جهة الشرق في الخليج الفارسي من جهة عمان والبحرين

واما اول اميرال مسلم ركب بحر الروم للغزو فهو معاوية بن ابي سفيان حينما كان عاملاً على الشام في خلافة عثمان بن عفان

ثم ان المسلمين شغفوا بالجهاد في البحر وامتلاك بعض جزائره

والذي يهمنا بصفتنا مصريين هو ان نعرف ان اول تأسيس دار الصناعة كان في جزيرة مصر (الفسطاط) في سنة ٥٤ هجرية وان الاسطول بمعناهُ الحقيقي كان انشاؤهُ للمرة الاولى في مصر في ايام عنبسة بن اسحاق والي مصر باسم الخليفة المتوكل العباسي (الذي سنذكرهُ بمناسبة التحقيق عما قريب) وكان ذلك في سنة ٢٣٨ . وكانت مصر انما تصد باسطولها غارات الروم وغيرهم من امم اوربا . واما الهجوم فلم يكن من شأنها الاَّ في حالة العدوان عليها . وذلك لانها من حيث الفتح والتوسع في الاستعمار ما كانت تطمع في غير رودس وقبرص . والسبب في ذلك انها تركت امر الجزائر الاخرى للبلاد الاسلامية القريبة منها

فكانت تونس توجه همتها البحرية الى صقلية وسردانية . وكان المغرب الاقصى متكفلاً بجزائر ميورقة ومنورقة ويابسة Iviça, Iviza, Ibiza وشطوط الاندلس وسواحل فرنسا

ولكن تونس سبقت مصر في اتخاذ الاساطيل في ايام عاملها حسان بن النعمان بامر الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان سنة ٦٩ للهجرة

بلغت الاساطيل الاسلامية من الجلالة انهُ كان لا يدخلها « غشيم — على قول الامام المقريزي — ولا جاهل بامور الحرب وكان خدامها حرمة ومكانة . ولكل احد من الناس رغبة في ان يُعَدَّ من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيهِ . » وقد افادنا ان العناية بالاساطيل الاسلامية في مصر انما قويت منذ قدوم المعز لدين الله اليها وكان المقدم على الاسطول امير كبير من اعيان امراء الدولة واقواهم نفساً (وهو الاميرال) وكان الاسطول

يزيد في ايام المعز على ثلاثمائة قطعة ثم اخذ في الانحطاط ولكنهُ لم ينقص قط عن مائة قطعة وكان الخليفة يحضر بنفسهِ تجهيز الاسطول وتفريق النفقة على رجالهِ . حتى اذا تهيأ للاقلاع ركب الخليفة الى منظرة المقس (محل جامع اولاد عنان الآن) لتوديعهِ بالاحتفال باهر فيكون لهُ يوم مشهود يزيدهُ بهاء ورواء حركات الاسطول المعروفة الآن بالمناورات البحرية (Les Manœunres navales) وقد بلغ من عنايتهم بالاسطول ان دار الصناعة في مصر ما كان يدخلها احد راكباً الاَّ الخليفة ووزيرهُ وذلك في يوم الاحتفال بفتح النيل اي جبر الخليج الذي انطمس الآن وصار طريقاً للترمواي

كان للاسطول في ايام صلاح الدين ديوان مخصوص يسمى ديوان الاسطول وسلمهُ لاخيهِ الملك العادل . فكان هذا الديوان يشبه ما كان معروفاً في ايام محمد علي بديوان البحرية وما هو معروف في ديار اوربا بنظارة البحرية . وهو الآن صفر في مصر فلا عين ولا اثر

وكانت اسكندرية ودمياط هي الموانئ الحربية البحرية في ديار مصر . اضف اليها مدينة تنيس التي هي الآن خراب بلقع . واما الفسطاط (مصر القديمة) وقوص من اعمال الصعيد فكانتا من اعظم الموانئ النيلية وفيها يكون انشاء السفن الحربية التي توابط بتلك الثغور وتذهب للغزو في البحر لاجل اعلاء كلمة مصر وجعل رايتها خفاقة في الخافقين

ما هي القطع التي كان يتألف منها الاسطول في الدول الاسلامية

هي الاعراديات والاغربة والبركوشات والحراريق (او الحراقات) والشلنديات والمسطحات . ويتبعهُ سفائن اخرى تجيء في المرتبة الثانية من الاهمية وان كانت حاجتهُ اليها شديدة . وسنتكلم عليها عما قريب

سارت الاساطيل الاسلامية باسم الله مجراها ومرساها فارست على سواحل الجزر وشطوط اوربا والتشمراسيها وفي الاتاجر جمع المجر لفظة يونانية عربوها فقال الفرنسيون Ancre واشتقوا منها المصدر Ancrer ثم ربط العرب مراكبهم بالحبال الغليظة وهي الامراس والمرار جمع مرّ فسمى الطليان ذلك الحبل Amarra وتوسع فيهِ الفرنسيون فقالوا Amarrer و Amarrage مثل ما صنع العرب حينما قالوا امرّ السفينة او الشيء بمعنى ربطها بهذا الحبل الغليظ القوي المتين . وعلى ذكر الحبل اذكر بانهُ هو Cable الفرنسية بمعنى واحد وان اللفظة الثانية مأخوذة عن ذلك الاصل العربي

ولا يعني ان ابتجاوز النشط واتتبع العرب في سيرهم قبل ان اقول انهم حينما استقرت قدمهم بالسواحل انشأوا فيها دور الصناعة على مثل ما ذكرنا في مصر وتونس فقال الطليان في

اول الامر Darsena اي دار الصناعة فكان مثلهم في ذلك مثل اهل اسبانيا والبرتقال · ثم قال الطليان Tarzana ثم Arzana ثم Arzanale ثم Arsenale واستقروا على هذا اللفظ الاخير الى يومنا هذا ومنهُ كلمة الفرنسيين Arsenal

فلما جاء محمد علي وتقلد امر مصر واراد احياءها رأى ان ذلك لا يتم الاَّ بانشاء الاسطول · فاستحدث دار الصناعة في الاسكندرية وانشأ الاسطول واستخدم في ذلك كثيراً من الاتراك والطليان وغيرهم من بني الاصفر فلذلك جارى اجدادنا الاقربون هؤلاء الاقوام فاستردوا منهم كلمتهم العربية البحتة المحضة ولكن مصبوغة بلون افرنكي ضاعت معهُ معالمها الاصلية فقالوا كما قال الترك « ترسانة » بل تركوها بعضهم اكثر من الترك انفسهم فقال « ترسخانة » من باب المبالغة في التضليل وتعفية الآثار الاصلية · وقد استحكمت هاتان الكلمتان في استعمال الخاصة والعامة حتى لا سبيل لاقتلاعها او الاقلاع عنها مع ان الطليانيين لا يزالون الى اليوم والى ما بعد اليوم يقولون Darsena ولكن للدلالة على القسم الداخل في جوف الميناء حيث يربطون السفن المحتاجة للتعمير بعد نزع آلاتها وجهازاتها

ما هي الوظيفة الاساسية لدار الصناعة ؟

انشاء السفن واصلاح ما عساهُ يحدث فيها من العوار

اخذ الافرنج الكلمة الثانية وصنعوا منها كلمة Avarie ثم اطلقوها ايضاً على جميع انواع العوار في السفن والسلع وغير ذلك

ومن المعلوم ان انشاء السفن يدعو الى ما نسميه نحن الآن « بالقلفطة » على يد « القلفاط » · فهذان اللفظان نائبا ما نال دار الصناعة فانهما معربان عن اللغات الاوربية التي اخذتها عن اللغة العربية وهذا كما ترى

رأى اجداد الافرنج عملة السفن يشتغلون في دور الصناعة بالقلافة فيقلفون المراكب فقالوا Calfa من فعل « قلف » العربي ثم اضافوا اليهِ علامة المصدر في لغتهم بعد زيادة حرف التاء للتوصل للنطق بين ساكنين كما يقولون في حالة الاستفهام (?Ant-il) قال في تاج العروس : قلف السفينة قلفاً خرز الواحها بالليف وجعل في خلالها القار (الزفت) والاسم القلافة بكسر القاف · افليس هذا هو الذي يفعلهُ القلفاط يا ابناء السالة ويا اولاد الانفوش ؟ فانتم في ذلك شهود عدول

كل اسطول لا بد لهُ من سفائن تحمل الزاد والمتاع والكراع · فمنها التي نسميها اليوم « بالنقالات » Transporte اما الاساطيل الاسلامية فكانت تخدمها الفراقير جمع

قرقور اخذ الطليان هذا اللفظ فقالوا Carraca وقال الفرنسيون Carraque . لا تعجبوا من التباعد بين الاصل والفرع فان الانتقال من لغة الى اخرى يأتي بما هو اشد وابعد « ولتعلن نبأهُ بعد حين » . فانكم اذا علمتم ان البرتغاليين يقولون في تسمية هذه السفينة Carcora ثبت لكم صدقي . واسترجعنا اللفظ منهم في هذه العصور الحديثة ولكن مفرنجاً فقلنا كراكة من قول الطليانيين Carraca ولكن بمعنى آخر لنوع آخر من السفن التي تستعمل لنزع الطين والرمال من قاع النهر والترع والخلجان ومن قاع الموانى والمعابر البحرية في نظير المركب المسمى عند الفرنسيين Drague

وكان لا بد لكل اسطول من سفائن خصوصية لحمل الخيل وهي التي تسمى بالطرائد جمع طريدة (وذلك خلاف الطراد وجمعهُ طرادات) . اخذ الافرنج هذا الاسم فقال الطليان Taride ثم Tarete وقال الفرنسيون Tartane ولكن للدلالة على سفائنها الشراعية التي تمر في البحر الابيض المتوسط غرباً

من توابع الاسطول الفلائك جمع فلوكه فقال الطليان feluca وقال الفرنسيون felauque وكذلك الشباك فقال الطليان Scibecco والفرنسيون Chebec ومن توابعهِ القوارب فقالوا Corvette من اللفظ المقرر وهو قارب وربما يصح القول بانهم اخذوهُ من غراب وترجمتهُ باعتبارهِ سفينة حربية Galère

بقيت عليَّ كلمة بشأن الشلنديات التي ذكرتها في اسماء مراكب الاسطول . فمفردها شلندى (ولا ادري ما اصلهُ في العربية) فقال اللاتينيون Chelandime . واخذهُ الروس فقالوا Schelanda وقال الطليان Scialando والفرنسيون Chaland واسترجعناهُ منهم بطريق التعريب والتقريب والتأهيل فقلنا « صندل » . واصبح هذا الاسم بتحريفاتهِ عندهم وعندنا علماً على السفائن المخصصة لنقل البضائع مثل المواعين جمع ماعونة التي قال فيها الفرنسيون Mahonne والطليان Mahona و Maona و Magona

ارجعوا بنا قليلاً الى البحر فان الاسطول قد تصادفهُ الرياح بما لا تشتهيهِ وقد تعاكسهُ الامواج فيلقى الدوبة او الدواية Nautonniers منهُ الامرين . وهول البحر وهولهُ يعرفهما كل من اقتحم لجتهُ . فالملاحون يسمون اضطراب الموج الشديد بالهول وبالهولة فقال الفرنسيون في ذلك houle للموج المتعالي كالجبال وقد تعاكسهُ الريح التي تهب من الجنوب الشرقي تبقي الاسم الثاني في ذاكرة الافرنج فقال الطليان Scirocco ثم Sirocco وSciloccc واما الفرنسيون فاطلقوا عليهِ Siroco ثم Sioux وكل ذلك مأخوذ من الشرق والشروق

اما رياح الموسم فيسميها الفرنسيس Mousson والطليان Monsone . ولا تعجبوا لوضعهم النون بدل الميم في آخر الكلمة فلهم في التبديل شيء كثير من هذا القبيل . وحسبنا انهم جميعاً يسمون مدينة سوا كن Soualkim . فلنأخذ النون من هنالك ونضعها بدل الميم هنا لنرد كل شيء لأصله . لان كلمة rendre وrendere عند الفرنسيين والايطاليين مأخوذة من الاصل العربي وهو الرد ولا عجب فان اللاتينيين قالوا Redd-ere باضافة علامة المصدر فزاد الطليان والفرنسيس نوناً من عندهم وليس لنا في ذلك شأن معهم . ولكنهم عند بحث الاسم يردون الكلمة الى جرثومتها العربية فيقولون في تقديم الحساب وفي تسليم الحصون reddition des comptes, reddition d'une place fortifiée

نعود الى الاسطول ونقول انهُ بعد ان لقي من البحر ما لقي دخل الى المينا ولعدم خبرة الربان اصطدم بشعب فقال الافرنج في ذلك récif تشبيهاً لهُ ببروز الرصيف في الشوارع والطرقات التي انشأها العرب في ما بعد بتلك البلاد . ثم دخل الاسطول الى المينا في كلاو الله وحفظهِ وفعل ما سنأتي على بيانهِ . ونعد الى المحل الذي يأمن فيهِ من عبث الرياح وثوران الامواج وهو الموضع الذي يسميهِ الاسبانيون والبرتقاليون Cala والفرنسيون Cale وقد استعملهُ الفرنسيون ايضاً لجوف السفينة وهو الاستعمال الشائع في لغتهم الآن . الفاظ اصلها مشتق من كلمة كلا العربية بمعنى حرس وحفظ وهذا كما ترى

ماذا صنع الاسطول ؟

اصطف للقتال ونصب المنجنيق . هذه كلمة يونانية استلحقها العرب واضافوا اليها النون الاولى لتدخل في اوزانهم

عادة المغاربة جرت بانهم لا يضعون نقط الاعجام فوق الفاء والقاف وتحت الياء متى كانت هذه الحروف مفردة او في آخر الكلمات اذ في هاتين الحالتين لا يمكن حدوث التباس ما بينهما وبين ما يشابههما من الحروف الاخرى . فلو تصورنا ان بعضهم كتب اسم هذه الآلة الحربية على هذا المثال « منجنيو » وفرضنا ان ذيل الحرف الاخير انطمس بسبب ما فاصبح « منجنيو » فاننا لو اردنا ان نرسمها وفي على هذا الشكل بحروف افرنكية لحصلنا على mangonneau منجنيو و بنطقهم منجو بغير تشديد النون وان كانت مكتوبة مرتين وهو الاسم الذي اطلقهُ الفرنسيون على المنجنيق

***

اتعبتكم بذكر البحر والحرب وانتم اهل السلام فهل تحبون الذهاب الى العراق والدخول

بسلام في مدينة السلام مدينة ابي جعفر اعني بغداد ؟

كانت مدينة ابي جعفر المنصور جنة الدنيا في عهد هارون والمأمون وخصوصاً في ايام المتوكل . وكان فيها شاعر يسمّى ابو العبر لهُ احوال عجيبة وامور غريبة وكان من المجّان الذين يقل نظيرهم في الدنيا . وقد تكفلت كتب التواريخ والادب بشرح امورهِ كان يزيد في كل سنة حرفاً في اسمهِ حتى انتهى الى : ابي العبر طرد طيل طليري بك بك بك . كان المتوكل يلبسهُ قميصاً من حرير ثم يرمي بهِ في المنجنيق الى نهر دجلة فتى حذقهُ المنجنيق في الهواء صاح : الطريق الطريق (كما نقول الآن وسع وسع) ثم يقع في الماء فيأتي السبّاح ويستخرجونهُ وكان في احد قصور المتوكل زلاقة ما اشبهها بالتوبوجان Tobogan الموجود الآن في مصر الجديدة (واحة عين شمس) . فكان الخليفة يأمرهُ بالجلوس عليها ومن هناك ينحدر ساقطاً من فوق الزلاقة حتى يقع في البركة فيطرح الخليفة الشبكة فيخرجهُ كما يخرج السمك . وفي ذلك يقول شاعرنا

ويأمر بي الملك فيطرحني في البرك
ويصطادني بالشبك كأني من السمك

***

فعل المنجنيق بالحصون افاعيلهُ وتم لهُ النصر فخلا البر للعرب فنزلوا وقاتلوا وفازوا ثم شنوا الغارات على الاقطار النائية تمهيداً للتسلط عليها فقال اصحابنا Algarade في الغارة وقال الاسبانيون في المغاورين Almogavares ولا يزال اهل ايطاليا يقولون Mugauero للدلالة على الجندي وعلى المزراق الذي يحملهُ . وقالوا في الغازي Alguazil (وذهب بعضهم الى انها مأخوذة من الوزير) . ولا عجب من اضافة الجيم في هذه الحالة الثانية فانهم يضيفونها على جميع الكلمات العربية المبدوءة بحرف الواو فيقولون في الوضوء Alguado وفي الوادي الكبير Guadalkivir وهكذا . ومن كلة Alguazil اشتق الفرنسيون قولهم Argousin لحارس المذنبين المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة

ورأوا العرب يستعملون السبطانة وهي آلة لرمي البندق ولصيد الطيور فقال الاسبانيون Cerbatana و Sebratana والبرتغاليون Sarabatana و Saravatana واما الطليانيون فقالوا Cerbottana واقتصر الفرنسيون على Sarbacane وربما كان من هذه الجرثومة قول الاسبانيين Zarabande وقول الفرنسيين Sarabande

رأوهم يستخدمون القناطة وهي نوع من السكاكين فقالوا Coutean وربما كان هذا

اللفظ مأخوذاً عن قول العرب : قُطَّ بمعنى اقطع من قطَّ يقُطُّ قَطًّا

اما الخنجر فقال الطليان فيهِ Cangiaro والفرنسيون Alfange وعلى ذلك قول شاعرهم

De nos honteux soldats les alfanges errantes,
A genoux ont jeté leurs armes impuissantes.

وقالوا في الزغاية وهي نوع من الحراب العربية : Zagaie

تجتمع العساكر عادة على صوت البوق ولكن للاسبان حينما اخذوا هذه الكلمة ونقلوها الى لغتهم قالوا Albogue لزمارة الراعي

ومتى اجتمعت العساكر للعرض والتمرين فان الفرسان تختال بخيولها . وقد يختال الفرس فيدور على نفسهِ ومن ذلك قول العرب كركر الفرس . اخذ الفرنسيون ذلك اللفظ فقالوا Caracoler وما اجمل امرء القيس حين وصف الفرس بشطرة واحدة كل كلمة منها تدل على حركة مخصوصة وتجعل السامع يتخيلها واقعة حاصلة بحضرتهِ قال :

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطهُ السيل من عل

وكانت السهام في ذلك الوقت هي التي يترامى المتحاربون بها . ولا يزال العرب مشهورين باصابة الهدف والغرض والقرطاس . فقال الفرنسيون في هذا المعنى Cible من كلمة قبلة ولا ازيدكم علماً بان السهام توضع في الكنانة وهي الجعبة . غير ان اشتباك العرب بالفرس والترك جعلهم يختارون كلمة من غير لسانهم وهي الترکاش بهذا المعنى فقال الطليان Turcasso ثم قالوا Carcasso كما قال الاسبان Carcax وكما قال البرتغاليون Carcas والفرنسيون Carquois . وانتم تعلمون ان الفرنسيين كانوا الى عهد قريب ينطقون بحرفي oi كما ينطقون بحرفي ai ولكنهم عدلوا عن كتابة oi في امثال هذا المقام وابقوا Carquois على حالها رسماً ونطقوها بالنطق الجديد فلذلك صار بينها و بين اصلها العربي بون بعيد

***

الى هنا وضعت الحرب اوزارها فاستقرت قدم الفاتحين وعرضوا جيوشهم تخفق فوقها الرايات والاعلام والبنود . فاخذ الفرنج هذه الكلمة الاخيرة فقالوا في بند المعربة عن الفارسية Bande دلالة على الجماعة المنضوين تحت لواء واحد ثم اطلقوها من هذا القيد . وقال الطليانيون في ذلك Bandière والفرنسيون bannière واخذنا عن الطليانيين كلمتنا مطلينة فنحن نقول الآن بندِيرة

ماذا كان لون راياتهم ؟

كان تبعاً لشعار الدولة القائمة في دمشق او بغداد او القاهرة . فشعار بني امية من

الالوان الخضرة في الملابس والبياض في الرايات . اخذوا ذلك عن اللون الذي كان يعتم به النبي صلى الله عليه وسلم . واما بنو العباس فشعارهم السواد في الحالتين . اخذوا ذلك فيما يقال عن اللون الذي اختاره رسول الله يوم حنين و يوم فتح مكة . فانهُ عقد لعمهِ العباس راية سوداء . وقيل ان ذلك يرجع الى حزنهم على ابراهيم بن محمد اولـــ القائمين بالدعوة العباسية . فان مروان بن محمد الجعدي المنبوذ بالحمار (وهو آخر بني امية) حينما ضيق عليه الخناق قال الرجل لشيعته: « لا يهولنكم قتلي فاذا تمكنتم من امركم فاستخلفوا عليكم العباس» فلما قتلهُ مروان لبس اشياعهُ كلهم السواد حداداً وحزناً عليهِ حتى اذا صار اليهم هذا الامر اعني الخلافة جعلوا السواد شعارهم في كل امورهم . وكانت جنودهم تعرف باسم المُسوَّدة . فكانت المُسوَّدة تقاتل مع المُبيِّضة (اي لابس البياض من المواليد الامويين) وكان الناس على فريقين بعضهم يسوِّد وبعضهم يبيض حتى عم السواد سواد العراق وخفق على جميع الآفاق . اللهمَّ الاَّ في الاندلس فانها عادت اموية بفضل عبد الرحمن الداخل . وكانت شعارها الخضرة في الرايات كما يراهُ الانسان في البقايا المحفوظة الى الآن في دور التحف بمدريد وغيرها من امصار اسبانيا

ولقد تغالى الاندلسيون ايام دولتهم في كراهة السواد حتى انهم لم يستعملوهُ في الحزن والحداد . فكانوا يلبسون الثياب البيض فقط في الحداد لئلاَّ يتشبهوا بالعباسيين في شيء ما حتى عند وقوع المصائب وكوارث الايام

ولقد تجددت في هذه الايام ذكرى الاندلسيين في حدادهم على بد غادة من فتيات امريكا وهي تظهر انها متبرعة للبس البياض في حالة الحداد . اشير الى ارملة الخواجه استور صاحب القناطير المقنطرة من الدنانير والملايين المملينة من الذهب الوهاج

فان زوجها غرق حديثاً في الباخرة تيتانك Titanic وهي لا تزال في ربيع العمر وريعان الشباب . فرأت من الواجب عليها ان لا تشوه محاسنها بلبس السواد على ما جرت بهِ العادة الشائعة الآن في جميع اقطار العالم . فاختارت البياض

فمن لي بتعريفها بانها ليست من المجتهدات وانها انما كانت لعرب الاندلس من المقلدات؟

ومن غريب ما يتعلق بالسواد والنساء ان الظافر خليفة الفاطميين بمصر لما قتلهُ وزيرهُ بعث نساء الخليفة بشعورهنَّ الى الصالح طلائع بن رُزِّيك وهو يومئذٍ بمنية ابن الخصيب (اعني انهُ كان مدير المنيا بحسب اصطلاحنا الاداري الآن) فاسرع لتجديتهنَّ . ورأى ان يستميل الامة المصرية واجنادها اليهِ لاجل اغاثة الحريم والدفاع عن بيضة الخلافة .

فعقد تلك الشعور على رؤوس الرماح (كما هو الحال الآن في وضع جدائل الشعر فوق المزاريق التي يعتقلها الرماحة في اوربا وفي مصر) واقام الرايات السود من باب الحزن على الخليفة المقتول وعلى ما حل بالقصرين وساكنات القصرين من بيت الخلافة واعلانًا بالحرب لاخذ ثار الظافر . فدخل القاهرة على هذه الصورة . فكان ذلك من الفأل العجيب وهو ان مصر انتقلت الى السودة (بني العباس) ورجعت الى حكمهم بعد ذلك بخمسة عشر سنة في ايام العاضد آخر الفواطم وعلى يد صلاح الدين الذي يسميه الافرنج كلهم Saladin فكان السواد شعارها الرسمي تبعًا لراية امير المؤمنين Miramolin

حتى جاءت دولة المماليك فصار لون الرايات هو الاصفر . كانت لهم راية سلطانية كبيرة صفراء مطرزة بالذهب وعليها القاب السلطان . و بعدها راية عظيمة صفراء ايضًا وفي رأسها خصلة من الشعر وهي التي تسمى بالجاليش . ويتلو ذلك رايات صُفر صغار تسمى الساجق

فلما جاءت الدولة العثمانية صار اللون الرسمي هو الاحمر بتوسطهُ الهلال المحبوب الذي ترمقهُ العيون وتلتف حولهُ القلوب . فلنقف الآن تحت الهلال ونترك البقية الباقية لمحاضرة او محاضرات تالية ان شاء الله

احمد زكي

[المقتطف] بعث الينا سعادة الخطيب بنسخة منقحة من خطبته بعد ان طبعنا الجزء الاول منها في المقتطف الماضي فرأينا ان نذكر هنا بعض الحواشي التي علقها على ذلك الجزء فقد علق على كلة المعز الواردة في السطر التاسع من الصفحة ٣٦٣ ما نصهُ «هو الخليفة الفاطمي الذي اسس القاهرة والجامع الازهر على يد قائده جوهر» وعلى كلة صلاح الدين ما نصهُ « هو رأس الدولة الايوبية ومؤسس المدارس الكثيرة بمصر والشام » وعلى كلة الظاهر ما نصهُ «هو السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري الشهير بفتوحاته وبما انشأهُ من دور الكتب بمصر والشام » وعلى كلة الناصر ما نصهُ « هو السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون اجل سلاطين الديار المصرية الذي شمل برعايته اهل الفنون والعلوم والذي ظهرت في عهده اكبر الموسوعات العربية التويري والعمري » . وعلى كلة المؤيد « هو السلطان المؤيد المحمودي الذي كان مغرمًا باقتناء نفائس المصنفات . وهو من اكبر انصار العلم وقد اشتهر بالاطلاع الواسع حتى لقبهُ التاريخ بلقب شيخ » . وعلى كلة الاشرف ما نصهُ «هو السلطان الملك الاشرف قايتباي الذي ازدانت القاهرة في عصره باجمل الآثار الفنية البديعة في سائر انواع الطراز العربي حتى اصبحت القاهرة في عصره كعبة يحج اليها العلماء وجنة زاهرة لارباب الفنون الجميلة »